الشعر و الشعراء الشعبيون في بايلك قسنطينة خلال العهد العثماني

عبد الجليل رحموني
أستاذ دكتورالي
جامعة ابن خلدون تيارت

Abstract.

This article is about Poetry and Popular Poets in Constantine during Ottoman Era. Therefore this Topic Fall urchin the Topics which are related to cultural popular side in the Prairnce of Constantine during the Ottoman era where we tried to highlight the Poets of the Prance of Constantine, So they wrote the Poets wrote a lat of Poems in Politics, economy and Culture, as they spoke about Praise and Pride. as a result many Pates appeared such as the popular poet "Abualcoasm Rahmouni", and Poets "Mohammed Shazli", and Others, resulting in the emergence of Several Popular Poems which have a historical Terms of the Topic which you ever had, and Political Terms.

مقدمة:

احتل بايلك قسنطينة خلال العهد العثماني موقع استراتيجي هام مما جعله أن يكون من أهم البايلكات نشاطا وحيوية سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي، هذه الخصائص جعلت منه أن يكون قبلة للشعراء الشعبيين الذين اتخذوا من الشعر وسيلة للتعبير عن مشاعرهم، كما استعملوا الشعر كأداة للتعبير عن أفراحهم وأحزانهم ومعاناتهم، ويتضح ذلك جليا من خلال ظهور عدت قصائد شعرية شعبية تبرز مكانة هذا البايلك ودور الحكام العثمانيون في تشييده، ومن هذا المنطلق كيف تم تأسيس بايلك الشرق؟ و ما هو الانطباع الذي سجله هؤلاء الشعراء حول بايلك قسنطينة؟ و إلى أي مدى ساهم هؤلاء الشعراء في دعم ونصرة الحكام العثمانيون؟

أولا: بايلك قسنطينة النشأة والتأسيس

قبل الحديث عن الإنتاج الشعري الشعبي الذي يدور حول بايلك قسنطينة وعن شعرائها رأينا من الضروري في بداية هذه الورقة البحثية إعطاء لمحة مختصرة عن تأسيس هذا البايلك وعن أصل تسميته، حتى نتمكن من معالجة هذا الموضوع من كل جوانبه ، وسنحاول الوقوف بشيء من الاختصار عند أصل تسمية هذه المنطقة التي عرفت قديما بسرتا (Cirta) ويقال أن هذا الاسم سامي الأصل من بين أقدم الأسماء التي عرفت بها المنطقة ويقصد به" المدينة "أو" القلعة" تم تحريفه من الاسم الحقيقي كرتن (Carten) [1]، ويخبرنا محمد الصغير غانم أن اسم "سيرتا" يعود بدوره إلى بداية الاحتلال الروماني " لنوميديا" الذي يؤرخ له في سنة 46 ق.م حين أصبحت سيرتا(Cirta) عاصمة للاتحاد السيرتي.[2]

عُرفت قسنطينة باسم آخر وهو "بلد الهواء" أو "بلدة الهوى"، فهواءها الحسي لا يزيد ولا ينقص في مرآة البصر، وهواءها المعنوي يزيد وينمو حسب الليالي، وسميت كذلك" بالحصن الإفريقي"، ولعل هذا ما جعلها أن

تكون مثار إلهام للعديد من الكتاب و الشعراء الشعبيين، أمثال أبو القاسم الرحموني ومحمد الشاذلي، وصدور الكثير من الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة عنها في وصفها.[3]

والجدير بالذكر فإن التسمية الحالية التي تعرف بها المدينة ألا وهي "قسنطينة" فهي تزيد عمقا في التاريخ عن بداية القرن الرابع ميلادي، وهي نسبة إلى "قسطنطين الكبير" الذي أعاد بناءها ورمم أسوارها وأعطاها هذا الاسم سنة 313م، وذلك بعد تهديمها من قبل الرومان.[4]

أما عن تأسيس هذا البايلك فتُشير أغلب الدراسات إلى أن الوجود العثماني في بايلك الشرق يعود إلى مطلع القرن 16م، لكنه كان محصورا في المدن الساحلية مثل جيجل،[5] أما الأسير هايدو « Haedo»[6] فيخبرنا بأنَّ خير الدين كان أول من دخل مدينة القل، وأخضع سكانها سنة 1522، وامتد نفوذه في نفس السنة إلى مدينة قسنطينة،[7] بينما ذهب آخرون إلى أن العثمانيين قد استقروا بمدينة قسنطينة بعد أن تمكن خير الدين من استرجاع مدينة الجزائر من ابن القاضي 1525، إلاَّ أن تسييرها كان من بعض الأعيان، [8] ومن هنا فالمصادر لا تتفق حول تاريخ مُحددا ودقيقا لاستقرار العثمانيين في مدينة قسنطينة وهناك من أربطها بسنة1528، لكن لم يستمر طويلاً.[9]

والجدير بالذكر أن الوجود العثماني في مدينة قسنطينة، لم يُعْن بالاهتمام اللاَّزم من قبل المؤرخين والباحثين الفرنسيين وهو ما أثار انتباه بيربروجر « Berbrugger »[10] الذي طلب من مشاركيه إعطاء عناية خاصة لهذا البايلك الذي ظل غائباً عن اهتمامهم،[11] وهذا ما يُؤكده « Eayssettes » في مقال نشره في المجلة الإفريقية بقوله:" إنَّ قسنطينة لم تعرف اهتماما كبيرا من قبل الكُتاب"،[12] والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا لماذا لم يحظ هذا البايلك بالدراسة اللائقة به على الرغم من أهميته؟

للإجابة عن هذا السؤال يتوجب علينا العودة إلى المصادر المحايدة التي تقول:" إنَّ بايلك الشرق عرف نفس الصراع القبلي الذي عرفه بايلك الغرب ومع ذلك تميز بايلك الغرب بوجود مؤلفات، ويرجع ذلك إلى الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير الذي استمر من 1505 إلى 1792 كقبلة للمصادر المتعلقة بتاريخ المنطقة.[13]

تُعتبر قسنطينة عاصمة هذا البايلك الذي تأسس في زمن حسن باشا 1567، فقد حكم العثمانيون أغلب نواحيه الجبلية والصحراوية بواسطة الأعيان المحليين،[14] وهو أكبر البايليكات من حيث المساحة، والثروة إذْ يمتد إلى الحدود التونسية شرقاً، والحد الفاصل بين القطرين هو واد سراط، [15] أما حدود البايلك من الشمال البحر الأبيض المتوسط، وغرباً جبال البيبان حتى قرى بني منصور، أمَّا من الجنوب الغربي منطقة سيدى عيسى الحد الفاصل بينه وبين بايلك التيطري، [16] ويُشير لويس رين « Rinn (L) »[17] إلى أن السلطة العثمانية في بايلك الشرق قد فشلت في تسييره بسبب قوة أعيان العرب الذين كانوا في هذه المنطقة، ولذلك لجأ الأتراك العثمانيون إلى أساليب أُخرى لإحكام سيطرتهم، ومن بين هذه الأساليب هي القمع والإستلاء على الأراضي في السهول المحيطة بقسنطينة.[18]

كما كانت توجد بهذه المناطق قبائل قوية تُهدد الوجود العثماني، كان من الممكن لو اتحدت فيما بينها أن تقضي على الوجود العثماني، ولذلك نجد الأتراك العثمانيين ينتهجون سياسة فرق تسد بين القبائل ووسيلتهم في ذلك شيوخ الزّوايا أو المرابطون،[19] أما من الناحية الاقتصادية فيشير أحمد الشريف الزهار إلى أنَّ هذا البايلك كان من

أغنى البايلكات ساهم بشكل كبيرا في زكاة القمح والغنم، والذي يزيد عن نحو ألفين رأسا فضلاً عن التمور والزيتون الذي كان يبعث في صيف كل سنة.[20]

ثانيا: تعريف الشعر الشعبي

بعد الحديث عن أصل تسمية هذا البايلك وعن تأسيسه الآن يطيب لنا الحديث عن هذا النوع من الشعر الذي عرف انتشارا واسعا بين سكان بايلك قسنطينة، فقد اهتم الكتاب الفرنسيون بالشعر الشعبي، وكتبوا حوله دراسات ومقالات نشرت أغلبها في المجلة الإفريقية (La Revue Africaine)،[21] و سنحاول في هذا المقال تعرّف على الشعر المسمى بالشعر الملحون أو العامي الشعبي الذي عرف انتشارا واسعا بين سكان بايلك الشرق. [22]

لقد أكدت أغلب الدراسات أن بداية الاهتمام بالشعر الشعبي تعود إلى منتصف القرن 19م على يد الفرنسيين قصد التعرف على البيئة الشعبية الجزائرية وأنصب اهتمامهم بالشعر الذي تناول وقائع الصدام المسلح بين الجزائريين والجيش الفرنسي واعتمده الباحثون الفرنسيون كمادة تصلح للكشف عن سلوك الفرد الجزائري وردود أفعاله،[23] فقد شمل هذا النوع من الشعر عدة أنواع منها أغاني العمل، وهي الأغاني المرتبطة بأنواع العمل ومراحله المختلفة، ومنها أغاني البيت وهي ما يتم ترديده عند هدهدة الأطفال أو تنويمهم أو ملاعبتهم.

ومنها أغاني الصبية، وهي الأغاني المصاحبة لألعاب الصبية وتجمعاتهم، ومنها أغاني الأعراس وتؤدّى في أثناء مراحل العرس وإجراءاته المختلفة، أغاني السمر، وهي الأغاني المصاحبة للتعبير الحركي وتبادل المسامرة، أشعار السمر، ويتم ترديدها خلال مجالس السمر، مثل القصائد البدوية وأشعار القبائل. الشعر القصصي المُغنّى، ويُروى في تجمعات المناسبات، وخاصة الدينية منها. أشعار السير الشعبية، ويتم ترديدها في جلسات الاستماع، سواء في رواياتها النثرية أو في صياغاتها الشعرية،[24] ومن هذا المنطلق يمكن تعريف الشعر الشعبي على أنه فرع من فروع الأدب الشعبي العام، وينطبق عليه ما ينطبق على هذا الأدب من مميزات تجعله مختلفا عن الأدب العام، وأطلق الباحثون عدت تسميات على الشعر الشعبي واختلفت باختلاف الإطلاق الذي شاع استعماله في البيئة المحلية أو حسب اجتهاد الباحث.

وقد اتفق الباحثون على توفر أربع شروط أو خصوصيات في الشعر الشعبي وهي: مجهولية المؤلف، وعامية اللغة، والاعتماد على الرواية الشفوية، والتوارث جيلا بعد جيلا لكن يصادف الباحث هنا إشكالية وهي أن أغلب النماذج التي وصلت إلينا من هذا الشعر قديمة وحديثة لا تتوفر فيه جميع الشروط خاصة ما يتعلق بمجهولية المؤلف الأمر الذي دفع ببعض الباحثين إلى تبني مصطلحات أخرى كالشعر الملحون، والزجل في حين أصر البعض على تسميته بالشعر الشعبي،[25] ولعل هذا ما دفع المؤرخ أبو القاسم سعد الله [26] القول:" بأن هذا النوع من الشعر لا يحتاج إلى تحصيل الملكة عن طريق النصب والتعب والممارسة، بل إن انتشاره دليل على ضعف الثقافة بالمفهوم الأول، وبذلك يكون رواج الشعر الشعبي دلالة على ضعف الثقافة الأدبية في أي مجتمع فهو من الناحية الجدلية المحضة ضد الثقافة ودليل على انحطاطها.

وتعتبر ظاهرة شيوع الشعر الشعبي بدل الشعر الفصيح ظاهرة قديمة لا تخص العصر الحديث، فقد لاحظ ابن خلدون ذلك وعزا عدم عناية المغاربة بأنسابهم راجع إلى شيوع الشعر الشعبي الذي لا يحفظ كما يحفظ الشعر

الفصيح فضعف الثقافة في البلاد أدى إلى ظهور الشعر الشعبي، [27] الذي امتاز بالوفرة الهائلة، الأمر الذي يجعل التعامل معه وتفهم خصائصه أمرا صعبًا، دون القيام بتقسيمه إلى فروع وتصنيفه في أنواع فنية.

قام دارسو الأدب الشعبي بجهد متواصل لإتمام هذه العملية التصنيفية وفق أسس منهجية مراعين خصائص نصوص الأدب الشعبي وسماتها المشتركة، وإذا تركنا التصنيفات التخصصية التي يأخذ بها الباحثون المتخصصون، ووقفنا عند أيسر هذه التصنيفات وأكثرها شيوعًا، سنجد أن عامل امتزاج الظواهر الشعبية، بين مقومات الأدب الشعبي، يظهر على السطح مهيمنًا على تفريع التصنيف وتحديد الأنواع والأشكال؛ إذ يرتكز محور عملية التصنيف على السياق الذي يُؤَدَّى فيه كل نوع، ويدور حول المناسبة التي يُروى فيها[28] فقد حاول رابح بونار تقسيم هذا النوع من الشعر إلى قسمين وذلك بقوله " إن الشعر البدوي وهو نوع من الشعر الهلالي له خصائصه وسماته، والشعر الحضري وهو نوع من الموشحات والأزجال، وانطلاقا من هذين الرأيين نستخلص أن الشعر الشعبي الجزائري يعود ظهوره إلى التأثير المشرقي من خلال نزوح قبيلة بني هلال وبني سليم من المشرق إلى المغرب ثم التأثير الأندلسي وهما من أكثر العوامل المؤثرة في ظهور الشعر الشعبي الجزائري.[29]

ثالثا: بايلك قسنطينة كما يراه الشعراء الشعبيون

كان الشعر الشعبي في الجزائر خلال الفترة العثمانية مزدهرا خاصة في بايلك قسنطينة، وقد تعددت أغراضه حسب بواعثه وهي الدين والسياسة و الثقافة والفخر وغيرها، [30] فقد عرف انتشارا واسعا بين الشعراء الشعبيون،[31] اهتمت المجلة الإفريقية(La Revue Africaine) بنشر عدة قصائد شعبية في العصر الحديث عند القبائل الرحالة الجزائريين، وتشير المجلة أن شعر المنطقة الساحلية قد اختلف عن شعر أهالي الجنوب سواء من حيث طبيعة المواضيع المطروحة أو من حيث ترتيب الأفكار، أو حتى من حيث الإيقاعات المستعملة.[32]

تعددت أغراض هؤلاء الشعراء القسنطينيون فمنهم من استعمله للمدح والفخر كتلك القصيدة التي نشرها سانت كالبر « Charles Saint–Calbre » في المجلة الإفريقية (La Revue Africaine)، والتي كانت عبارة عن مدح لمدينة قسنطينة وأهلها عنوانها:"قصيدة في مدح قسنطينة وغيرها"، وقد ضمت 22 بيتا من أبياتها:

إنَّ رمت طيب هواء أرض لم يحل ... فَعنْ قسنطينة الحسناء لاتمـــــــل
تَنسى الغريب دِياره وَأوطانـــــــه ... وَتلهيه عنْ تذكار الأهل والخـــــول
كَأنها في استقرارها على جـــــبل ... ذُو تاج فوق سرير ملك ممتـــــــثل
تَنفي بأنسها وحشة المقيم بـــــها ... نسيمها مرهم يبري من العـــــــلل
كَمْ من فقير أتاها وهو مكتـــــيت ... فَصار يرفل في جمع منْ الحـــــلل
كَمْ من جبار أذاقته كُوس المـــردى ... فَكُل من رامها بسوء لم يصـــــــل
كَمْ ردت كبير مُلوك الغرب في نحرهم ... وَسقت تونس من مناهل الحنظـــال
وكمْ من جيش أتاها غازيا فانثـــنى ... منْ بعد شدته فِي غابة الخـــــجل
ذهبت أمواله نهبا وَإبطالـــــــــــه ... قتلا وَنحسه عنْ غير منعـــــــزل
لأهلها خلق في الحسن فائقـــــــة ... نَالوا بها شرف الثَّناء المكتـــــم[33]

وللشاعر الشعبي أبو القاسم الرحموني الحداد قصيدة حيث صورت لنا أحوال قسنطينة عموما فهذه القصيد لم تكن سياسية كما أنها لم تكن ضد العثمانيين بل كانت ضد الدخلاء على مدينة قسنطينة، فقد عرض في قصيدته الحياة الاجتماعية من فساد أخلاق ودين، والحياة السياسية من ظلم وطغيان، والحياة الاقتصادية من نقص في أحوال المعيشة والغلاء، وكان الشاعر في هذه القصيدة يتكلم على لسان أهل الطرق الصوفية، وهو أيضا ضد التجار الذين ولجوا على قسنطينة ونافسوا أهلها وقد جاء من أبياتها[34]

عَام مكبره هاي سَيدي بالكْساد وَغلات النَّعما
كيْف نخبر هاي سيدي بِالفساد في مكان حُوما
بَاح كل شيء بلاكتمان فيِ بلد قسنطينة الدَّهما
واش تنظـــــره هاي سَيـــــــدِي
ركَـــــــــاب
وَاش تَنظروا فِيها هلكـــــــت راهي فسْدت مَا بقت تسمى بَـــــلدة
مَن كثير العبد اندخلـــــــتْ رغما عمرت كُل جنس جاها يتـــــهدا
تَعمرت كثير بِكُل خـــــــبث وقوى الغوات تخلطت ورجعت كيف الداء
وأهلها انهزمت ودمـــــــرت والبد ولها حدث والقضاة عليها يتعـدى
إذا خشت بارهوا اندلـــــعت فِيها سكنت هذا يجي وهذاك يغـــدا [35]

كما أن هناك قصيدة رائعة لمحمد الشاذلي في مدح قسنطينة و التي صور فيها جمال المدينة وموقعها وهواءها جاء فيها:

لقد ظفرت أرض الجزائر بالمـــنا وبالعدل والإحسان مع علو القـدر
وعلى يد من ولاه ربي أمـــــرها وأعطاه تدبير الحروب مع النصر
ومن أوجب الإحسان للناس كلـــهم على نفسه من غير ظلم ولا جـــور
ومن نبغي وسم الذي قد وصفـــته (بيج) صاحب العز والفـــــخر[36]

كما نجد الشعراء في بايلك قسنطينة يفتخرون بالمنشات العمرانية و أمجاد الحكام العثمانيين، فقد وردت قصيدة شعبية لشاعر مجهول يمدح فيها "الصالح باي" لما قام به من منشآت عمرانية، وبناء للمدارس والمساجد ونحوها، فقد اعتبر الشعراء الشعبيين ذلك دليلا على اهتمام الولاة بالرعية والصالح العام فيقول في قصيدته[37]

طاب الزمان بمن يوالي نفـــعه للمسلمين وزاد في علـــــياه
ملك يؤم الصالحات بعد لـــــه فاختار آخرته على دنـــــياه
أحيى دروس العلم بعد اتدراســها وبني لها دارا زكى مبناهـــا
يعني مدرسة لاحت أشعة نورهـا لمَ لا وهي الدر في معـــناه
فالله يرزقه السعادة دائـــــما وينيله يوم القيامة مـــــناه
قد بين التاريخ في قـــــول لنا فخر المجاهد بالهنا مبـــناه[38]

كما نجد الشعراء الشعبيون اتخذوا من الشعر وسيلة للتعبير عن أحوالهم وأوضاعهم المعيشية، لأن الشاعر في تلك الفترة لم يكن يملك سوي قصائده الشعبية يعبر بها عن أحواله وأوضاعه، ونذكر في هذا المقام تلك القصيدة الشعبية التي كتبها أحد أعيان بايلك الشرق خلال الفترة العثمانية، تعبيرا عن القحط الذي أصاب البلاد ونقص محصول القمح والتغني بهذا المحصول النفيس نذكر من أبياتها:[39]

القَمحُ يَا بَاهِي اللوْنِ مَنْ شَبْعَتِكَ لاَ زِيَادَة
أنْتَ قَوتَ كُلَ مَسْكِين بِك الصَّلاَة وَ العِبَادَة

حتى يقول في آخره : آمَنْ سَيَّبْت نَبَات الحَجْبَة وَالوسَادَة.[40]

حاول الشاعر في هذه القصيدة التعبير عن الظروف الصعبة والأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها، كما نجد الشاعر الشعبي الشيخ أبو القاسم الرحموني قد عبر عن هذه المجاعة، فهو من معاصري هذه الأحداث فيقول:[41]

الأَسْعَار رَاه أَغْلاَت وَحَتىَ أَمْطَار الصِّيْف أَدْفَاقُوا
الحَرْث رَاه أَصْعَب نَبْـــتَه اليَبْس وَالحَجر يَكْثُرُوا.[42]

وعندما تمكن الفرنسيون في سنة1837 من احتلال بايلك قسنطينة، وقد قاوم أهلها مقاومة شرسة لم تشهدها لا مدينة الجزائر ولا مدينة وهران كتب الشاذلي قصيدة سياسة للأمير عبد القادر يستغيث به عندما كان في أوج سلطانه وقوته يحمي ملة الإسلام ويحارب نار الكفر بجيشه العتيد وجنوده الأبطال حيث نعته بالخليفة فقال: [43]

أياذا هبا نحو الخليفة بلغـــــن سلاما يفوق النـد عرفا يجـــدد
ووجهك عفر في تراب نعالـــه وبث لـه وجدي فانك تحمـــــد
وبلغ له شكوى قسنطيـنة بـــــما يسوء ذوي الأحلام والله يشهـد
وذلك أن الكـفر حل بـــــها وفي عمالتها من كل أرجائها يبـــدو
تري أهل دين الله حقا أذلـــــة وذو الكفر في عز وللحق يجحد

صاح الشاذلي بهذه الاستغاثة على لسان أهل قسنطينة مستنجدا بالأمير عبد القادر لأنه أصبح الحامي للدين الإسلامي والمسلمين في الجزائر بعد الانتصارات التي حققها في الغرب الجزائري مع جنوده الشجعان فمدحه الشاذلي ووصفه بأوصاف التمجيد والشرف.[44]

رابعا: أهم شعراء بايلك قسنطينة خلال العهد العثماني

لا يسمح لنا المقام هنا بعرض جميع الشعراء الذين عرفهم بايلك قسنطينة خلال الفترة العثمانية، لكن هذا لا يمنعنا بكل تأكيد من ذكر بعض النماذج لدراسة هذا الموضوع، وعليه سنقتصر الحديث على ذكر أربع نماذج من هؤلاء الشعراء وهم:

1–محمد النقاوسي:

هو محمد بن يحي بن أبي النقاوسي القسنطيني، ولد يوم الأربعاء 18 سنة 1444 م بمدينة نقاوس غربي قسنطينة، وكان والده

قاضيا فيها، حفظ القرآن الكريم واشتغل بالعلم في بلدته ثم دخل قسنطينة طالبا العلم، وسافر إلى تونس وأخذ الفقه من إبراهيم الأخضري، واللغة العربية والمعاني والمنطق وأصول الفقه عن أحمد النخلي ومحمد الواصلي، وسافر إلى

مصر سنة 899 هـ فواصل اشتغاله بالعلم فأخذ عن الشنمي في حاشيته والتقى الحصني في المنطق و الشرواني في شرح الطوالع، لا زم علماء آخرين كالقصرائي ، يحي العلمي، السخاوي فاستفاد منه، ونال الفقه والتاريخ والأدب كما أدى فريضة الحج ثم قفل راجعا لكنه لم يلبث أن ارتحل إلي تونس واستقر بها وصار أحد عدولها.[45]

كان محمد النقاوسي يحسن الشعر فأمتدح صاحب تونس "زكريا بن يحي بن مسعود" بعد إخراج عبد المؤمن بن إبراهيم بن عثمان عنها، وذلك في قصيدة، وقد أمتدح زكريا بكثيرا، ولم يطابق الواقع في مدحه غيره شهد له بذلك بعض الفضلاء المغاربة، ولم يمكث طويلا في تونس.[46]

2–عبد الكريم الفكون (1580–1663):

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، أديبا نحويا ومحدثا جمع بين علمي الظاهر والباطن، كان عالم الجزائر في عصره من أهالي قسنطينة،[47] وكان إماما بالجامع الأعظم وخطيبه، وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم أمتحن زمان الفتنة الواقعة بالبلد، [48] توفي في قسنطينة بسبب الطاعون أما عن آثاره– رحمه الله– له " شرح على البسط" و " التعريف في علم التصوف للمكودي" ، فرغ من تأليفه سنة 1048هـ، وشرح على شواهد الشريف على الأجرومية، و " محدد السنان في نحور إخوان الدخان"، وديوان في مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وشرح جمل المجراد ومخارج الحروف من الشاطبية، وتأليف في حوادث فقراء الوقت وهو الكتاب المسمى "بمنشورات الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية". [49] وتشير المجلة الإفريقية إلى أن ابن الفكون كان له مخطوط احتوى على أخبار تاريخية موثقة وعلى أدق التفاصيل لتاريخ مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني.[50]

ولعل أهم ما قام به ابن الفكون في الشعر هو كتابة ديوانه الذي خصصه لمدح الرسول فقد نظم عدة قصائد في هذا المعنى ورتبها على حروف الهجاء نذكر من أبياته:

أبدر بدت في الخافقين سعـــــوده ونورا به الأكوان أضحت تلألـؤا
له في العلي أعلى العلا رتبـــه وفي مراقبي ذوي العرفان قدما مبـــوأ
أضاء وجود الكائنات ببعـــــــثه وطلعته الغراء من الشمس أضوأ
هو الغيث أحيا الأرض بعد موتـــها وخاتم كل الرسل تمت مبـــــدأ
يرى الواء الحمد في الحشر إذ غـــدا مكنيا وفي الأهوال للخلق ملـجأ
مولده للأرض فخرا على الهمـــــاء وحق لها بالفخر وهو المنـــــبأ[51]

3–محمد أبي القاسم الرحموني (1739–1826):

هو محمد الصالح بن سليمان بن محمد بن أبي القاسم الرحموني العيسوي الزواوي نسبة إلى أولاد رحمون من شرفاء العش أديب نحوي شارك في بعض العلوم تعلم بتونس، [52] توفي أبوه وهو صغيرا فتزوجت أمه من حداد، و قد أظهر منذ صغره عزوفا عن التعامل مع زوج أمه الذي ما لبث أن توفي، أصيب الشيخ الرحموني بالعمى مما دفعه إلى التردد على مكان الشعراء فتعلم الشعر عن طريق النقل الشفهي ثم ما لبث أن أصبح شاعرا متميزا، وكان له لسان سليط يهاجم به كل من يقف في طريقه بشعره، أما تاريخ وفاته فتشير المصادر أنه توفي سنة 1826 إلا أن المجلة الإفريقية تقول يجهل تاريخ وفاته، من أهم أثاره قصيدة شعبية تُرجمت إلى اللغة الفرنسية ونشرت في المجلة الإفريقية[53] وله "ميزان اللباب في قواعد البناء والإعراب" و " الدليل على الأجرومية" و"شرح على الأزهرية" و

"المحتاج في شرح معاني السراج" للأخضري و" رياض السعود في ما لله من العجائب و الحدود " و " شرح البردة.[54]

4–محمد الشاذلي القسنطيني 1807–1877

ولد محمد الشاذلي سنة 1877 ويعتبر من فحول الشعراء الشعبيين في بايلك قسنطينة تربى في بيت محافظ، تلقى علومه في قسنطينة على أيادي مشاهير علمائها عندئذ فتعلم الفقه والحديث واللغة والخطابة والحساب، وهذه هي الفنون الرائجة في تلك الفترة، كما حضر مجالس الشيخ محمد بن سالم، والشيخ أحمد العباسي الذي كان يتمتع بشهره واسعة في المنطقة، والذي تولى القضاء المالكي والخطابة، أخذ عنه الشاذلي الحديث والقراءات والأدب واللغة وتأثر به،[55] وقد قال عنه الحفناوي في ترجمته أنه كان" كثير الإطلاع حاد الفكر قوي العارضة له أشعار رقيقة".[56] سافر الشاذلي إلى العديد من المناطق العربية مثل تونس،[57]

كما قام بثلاث رحلات خلال 1844–1849 إلى فرنسا وأوروبا، وقد حملته ثاني رحلة إلى بلجيكا وانجلترا وتركيا،[58] أما عن أعماله فقد ترك ديوانا شعريا وله العدد من القصائد نذكر منها:

–قصيدة في مدح قسنطينة مترجمة إلى الفرنسية.

–قصيدة في مدح الدوق دونال سنة 1844 م.

– قصيدة في مدحه أيضا سنة 1846 م.

– قصيدة في مدح السيد سالفندي وزير المعارف.

– قصيدة في مدح بيجو ودماس[59]

و في نهاية هذه الورقة البحثية لا أدعي بالقول: أنني كُنت ملماً بكل الإنتاج الشعري الشعبي الذي عرفه هذا البايلك، لكن بناء على ما تقدم ذكره وبصفة عامة نخرج بجملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط الآتية:

– أستطاع الشعراء الشعبيون في بايلك قسنطينة مسايرة مراحل تاريخ الجزائر الحديث منذ دخول العثمانيون للبلاد والى غاية دخول الفرنسيين، ويمكن أن نلتمس ذلك من خلال ظهور عدة قصائد شعرية شعبية معبرة عن الإنجازات الحضارية التي قام بها العثمانيون في المنطقة، ومن هنا يمكن اعتبار الشعر الشعبي مصدرا تاريخيا هاما لا يستهان به.

– إسهام الشعراء الشعبيون في دعم ونصرة القضايا الوطنية ولاسيما في الفترات الحرجة والظروف الصعبة التي مرت بها البلاد، إذْ مثل الشعر الشعبي دورا إعلاميا هاما، وذلك برصد مختلف الأحداث التي عرفها بايلك الشرق، فحاول الشعراء تخليدها في ذاكرة الأجيال مما يمكننا من اعتماد بعض القصائد الشعرية خاصة الشعبية وثيقة مهمة لبعض الأحداث التاريخية التي قد لا نجدها في مصادر أُخرى.

– لقد لعب الشعراء الشعبيين الدور البارز في التعبير عن الذات الإنسانية للمجتمع القسنطيني، وعن تقلباته وعن أفراحه وأحزانه، ومن هنا فإن الشعراء الشعبيون قد صاغوا تاريخ بايلك الشرق المجيد، وهذا بغرض إبراز مكانته، وعليه لسنا مبالغين إذا قلنا أن الشعراء الشعبيين قد تمكنوا من تخليد ما جرى من أحداث بايلك قسنطينة خلال العهد العثماني.

الهوامش:

(1) سعودي يمينة، الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، مذكرة ماجستير، كلية الأدب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005–2006، ص 12.

(2) غانم محمد الصغير،"قسنطينة عبر تاريخها القديم"، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري، قسنطينة، 1999، ص140.

(3) سعودي يمينة، المرجع السابق، ص14.

(4) غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص140.

(5) أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519–1830)، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص43.

(6) راهب إسباني تعرض للأسر و الاختطاف من طرف رياس البحر الجزائريين في شهر أفريل عام 1578 بينما كان يستقيل سفينة تابعة لقراصنة مالطا رفقة 289 شخصا، وفي سنة 1581 تم إطلاق سراحه، وقام بنشر أعماله تحت عنوان "طبوغرافية تاريخ الجزائر العام" ويعتبر هذا الكتاب من الوثائق الهامة، وللكتاب أهمية كبيرة كون أن صاحب هذا الكتاب هو من الذين عاشوا ويلات الأسر في الجزائر لذا فشهادة هؤلاء تعد وثائق تاريخية لأنها صادرة عن شخص واع وعن شاهد عيان فقد قام كل من بيربروجر « Berbrugger » مونيروا « Monnerou » بترجمة أجزاء ظهرت تباعا في المجلة الإفريقية (Revue Africaine) العددين 14و15. ينظر: حميد آيت حبوش، "مكانة المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، مجلة الحوار المتوسطي، ع2، دار الأصول، سيدي بلعباس، 2010، ص ص 72–73.

(7) Haedo (F .de Diego), Topographie et Histoire Générale d'Alger Traduit de Le Espagnol, par :M .M.de Monnereau et A. Berbrugger, Paris, Imprime à Valladolid, en1870, p45.

(8) Feraud (L), « E poque de L'établissement des Turcs à Constaine », R .Af, n°10, Alger, 1866, p192.

(9) Berbrugger (A), « E poque de L'établissement des Turcs à Constaine », R .Af, n°1, Alger, 1856, P401.

(10) وُ لد أدريان بيربروجر « Berbrugger (A) » في باريس 11مايو سنة 1801، فقد اهتم منذ البداية بدراسة علم الآثار القيمة، وقد تميز بالذكاء والخبرة،وبعد ما أكمل دراسته في مدرسة شارلمان الثانوية التحق بمدرسة شارت «Ecole des Chartes » العليا، وفي سنة 1832 كُلِّف بمهمة البحث عن القطع الأثرية التي يرجع عهدها إلى زمن احتلال فرنسا في القرن 15م، و بعد ذلك بسنتين سافر إلى الجزائر حيث شغل وظيفة كاتب للوالي العام كلوزيل « Kelouzil »، قبل أن يوافق فالي « Vali » في غزوته لقسنطينة، ومن مدينة قسنطينة عاد الكاتب حاملا معه عددا كبيرا من المخطوطات العربية، لمعرفة المزيد حول هذه الشخصية ينظر: عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520–1830م، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2014–2015، ص 53.

(11) Berbrugger (A), op.cit, p179.

(12) Ayssettes (E), « Histoire des Derniers Beys de Constantine », R .Af, n°3, Alger, 1858, p107.

(13) مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تح: حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر، 1999، ص 6.

(14) Rinn (L), « Le Royaume d'Alger Sous le Dernier Dey », R .Af, n°41, Alger, 1897, p41.

(15) أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص45.

(16) Vyssettes (E), op.cit, p117.

(17) وُلد في باريس بتاريخ 28 مارس 1838، وكان من عائلة علمية اهتمت بالحياة الأكاديمية، كان عمه نحويا متميزا لكنه سلطوي، فقد تقلد عمه عدة مناصب منها كان ناظرا في ثانوية لويس الكبير « Louis–Le–Grand »ومدير لجامعة ستراسبورغ، فقد درس رين « Rinn » في سان سير، مدرسة الفرسان، وجاء الجزائر سنة 1864 بمناسبة ثورة أولا سيد الشيخ، دخل في سبتمبر 1880 أصبح رئيس المصلحة المركزية للشؤون الأهلية، التي نشأت بالجزائر وترك فيها بصمات فقد عمل بها منذ 13 سبتمبر وكان أقدم رئيس للخدمة المركزية للشؤون الأهلية، و مستشارا شرفيا للحكومة وخلال سبع سنوات كان رئيس المجتمع التاريخي للجزائريين حيث بقي في هذا المنصب كرئيس شرفي، كان يتقن اللغة العربية وله إطلاع بأخلاق وعادات المجتمع الجزائري، كما عمل في سلك التدريس في كل من مليلة وبسكرة وسطيف وغيرها، وأصبح مستشارا لدى الحكومة العامة، ولاشك أن عمله منذ 1864 في المصالح الأهلية قد جعله يتعرف مشاكل الجزائريين. ينظر عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص 58.

(18) Rinn (L), op.cit, p40

(19) Guin, « Notes Sur le Bey Mohammed Dit El-Bey Derrah », R .Af, n°7, Alger, 1863, p294.

(20)أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تح: أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ج 7، ص73.

(21) المجلة الإفريقية (La Revue Africaine): هي مجلة تاريخية أصدرتها السُلطات الاستعمارية الفرنسية من خلال الجمعية التاريخية الجزائرية (Société d'Histoire Algérienne)، صدر العدد الأول منها في أكتوبر 1856، وتلاه العدد الثاني في شهر ديسمبر كانون الأول من نفس السنة، و استمرت في الصدور إلى غاية 1962. آخر مجلد فيها هو المجلد رقم 106، ولم تتوقف عن الصدور سوى في الحرب العالمية الأولى من 1914 إلى 1918. لمعرفة المزيد حول هذه المجلة ينظر: عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص35.

(22) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830–1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج2، ص240.

(23) سالم بن لباد، الشعر الشعبي إبان الفترة الاستعمارية، محاضرة، تخصص أدب عربي، جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، 2015، ص1.

(24) أحمد الشويخات، الموسوعة العربية العالمية الإلكترونية، 2004.

(25) سالم بن لباد، المرجع السابق، ص 1.

(26) أبو القاسم سعد الله: من مواليد 1937 بقمار بواد سوف شاعر، وأديب، ومؤرخ جزائري يعرفه الوسيط المثقف بشمال إفريقيا حق المعرفة من خلال مؤلفاته العديدة، توفي في 18 ديسمبر 2013 بعد مرض عضال ألزمه الفراش

من مؤلفاته: كتاب الحركة الوطنية الجزائرية بستة أجزاء، وكتاب تاريخ الجزائر الثقافي من تسعة أجزاء وكتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر من خمس أجزاء. ينظر: أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 8–9.

(27) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر .....، المرجع السابق، ج 2، ص 311.

(28) أحمد الشويخات، المرجع السابق.

(29) سالم بن لباد، المرجع السابق، ص1.

(30) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر... المرجع السابق، ج2، ص 240.

(31) Alexandre (J), « Remarques Sur La Poésie Moderne Chez Les Nomades Algériens », R .Af, n°44, Alger, 1900, pp283-311.

(32)Alexandre (J) , « Remarques Sur La ..... », R .Af, n°45, Alger, 1901, pp 208-209.

(33) Charles (Saint-Calbre), « Constantine et Quelques Auteurs Arabes Constantinois », R .Af, n°57, Alger, 1913, p87.

(34) Devoulx(Albert), « Epigraphie Indigène de Musee Archéologique d'Alger », R .Af, n°17, Alger, 1873, p247.

(35) Cour (A), « Constantine En 1802 », R .Af, n°60, Alger, 1919, p 225.

(36) أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني 1807–1877 دراسة من خلال رسائله وشعره، دط، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1974، ص 109.

(37) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800–1830، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1979، ص238.

(38) سعودي يمينة، المرجع السابق، ص120.

(39) صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1974، ص ص 33–34.

(40) نفسه، ص 43.

(41) Cour (A), op.cit, pp 227-231.

(42) Yacono (X), « L'Algérie depuis 1830 », R .Af, n°100, Alger, 1956, p 178.

(43) أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني 1807–1877 .....المرجع السابق، ص16.

(44) نفسه، ص 69.

(45) الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 286.

(46) سعودي يمينة، المرجع السابق، ص115.

(47)عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص 254.

(48) عبد الكريم الفكون، منشورات الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 48.

(49) عادل نويهض، المرجع السابق، ص 254.

(50) Feraud (L), « E poque de L'établissement…. », op.cit, p185.

(51) سعودي يمينة، المرجع السابق، ص113.

(52)عادل نويهض، المرجع السابق، ص 146.

(53) Cour (A), op.cit, p 226.

(54)عادل نويهض، المرجع السابق، ص 146.

(55) أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني 1807–1877 .....المرجع السابق، ص ص 17–18.

(56) سعودي يمينة، المرجع السابق، ص124.

(57) أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني 1807–1877 .....المرجع السابق، ص19.

(58) نفسه ، ص 23.

(59) نفسه، ص63.